# الصناعة اللغوية لطالب العلوم الشرعية

عبد المحسن العسكر

*فيما يلي تفريغ وجدناه على الشبكة على الرابط*

*http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=201802*

*وهو بحاجة للمراجعة لمن يملك الوقت والهمة:*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإننا نحييكم في هذا اليوم السبت الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة لعام تسعة وعشرين وأربعمائة وألف في جامع الأميرة نورة بنت عبد الله في الرياض. في هذه المحاضرة التي عنوانها **"الصناعة اللغوية لطالب العلوم الشرعية"** وهي ضمن الدورة المكثفة في حفظ واسماع المتون العلمية. وبادئة بدء أعلن لكم أن هذه المحاضرة موضوعها مهم ، وكان الائق أن يقوم بها من هو أقدر مني علماً وأمكن ، ولكن لما أحيل الأمر إليّ أستعنت الله جل وعلا وأنا أبرأ إليه سبحانه من حولي وقوتي إلى حوله وقوته ضارعاً إليه عز اسمه أن يلهمني الصواب ويهديني سواء السبيل ، كما أسأله سبحانه أن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصةً لوجه الكريم إنه سبحانه قريب مجيب وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أيها الأخوة .. إن الله جل وعلا لحكمته وكمال لطفه خلق الإنسان وخصه بأنواعٍ من النِعم، ومن أجلِّها نعمة اللسان فبه يتحاورون ويقيمون شؤون حياتهم ، قال الله عز وجل " { ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَانَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ } " وقد جعل الله البشر شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ومن مقتضى ذلك اختلاف ألسنتهم وألوانهم. وأشارت بعض الدراسات الحديثة إلى أن اللغات التي يتكلم بها البشر في أصولها تقرب من ثلاثة آلاف لغة وقد وقع إتفاق العلماء قاطبة من عربٍ ومستعربين على أن أفضل اللغات وأشرفها اللغة العربية، ولا أقول لأنها لغة القرآن كما يقول كثير من الناس ويصدِّرون كلامهم بهذا وهو شرف للعربية ذلك ولكن أقول أولاً لما لها من الخصائص السابقة، وهذا يجب أن يذكر أولاً ثم يقال لما خصها الله عز وجل ثانياً من أنه جعلها لغةً لكتابه العظيم.

اللغة العربية لغةٌ لها خصائص تجل عن الوصف وتفوق العد، ويكفيها شرفاً وخلود ذكر أنها لغة القرآن الذي نزل على قلب سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الفصحاء وإمام البُلغاء "{ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ} " ، قال الله عز وجل "{ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين }" قال ابن فارس رحمه الله عند هذه الآية "فلما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلم أن سائر اللغات قاصرةٌ عنه –أي عن هذا اللسان العربي– وواقعة دونه" وقال الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة " ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلم يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي، ولكن لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه" يقول لا يعني أن يذهبون من هذه اللغة شيء لا يعرف، وفي مقدمة العين أن الألفاظ العربية اثنا عشر مليوناً من الكلمات ومن الألفاظ والمستعمَل من ذلك قليل. قال أبو محمد بن قتيبة رحمه الله: " إن الله اختص لغة العرب دون سائر اللغات وليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصاً من الله عز وجل –بعض الناس يقول خصيصاً والصواب خصيصا– لما أرهصه في الرسول وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله سبحانه علم كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه من الأمور بما في زمانه المبعوث فيه" أهـ رحمه الله . وشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بما آتاه الله من سعة علم وعظيم اطلاع له ثناء واسع على اللغة العربية وله ذكر بخصائصها يحفل به كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم"، يقول في هذا الكتاب " أكمل اللغات لغة العرب " وذكر أشياءً أخرى سنأتي عليها إن شاء الله، وذكر في كتابه أيضاً " الرد على البَكْرِي" يقول: " أكمل الألسنة لسان العرب باتفاق أهل العلم بذلك" أهـ رحمه الله.

ولهذه الصلة العظيمة ما بين اللغة العربية والقرآن فقد اعتقد المسلمون على مر العصور أن لغتهم جزء من حقيقة الدين وذلك لأنها –أعني اللغة– هي التي حملت إلينا هذا الدين الذي جاء به النبي الخاتَم صلى الله عليه وسلم، فهذه اللغة العربية ترجمان لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ولسان لدعوته. كانت لغة العرب قد بلغت أوجه قبيل نزول القرآن على اتفاق بين أهل العلم وكأن ذلك إرهاص لنزول القرآن بهذه اللغة العظيمة ، ثم جاء النبي الخاتَم محمد صلى الله عليه وسلم فهذب هذه اللغة وأضفى عليها شيئاً عظيماً من بيانه وجاء هذا الدين ونشر هذه اللغة في أقطار الأرض وخلدها القرآن بخلوده. فالقرآن كما هو معلوم لا يسمى قرآناً إلا بهذه اللغة فإذا تُرجمت معانيه لا يسمى قرآناً وإنما يسمى ترجمةً للمعاني، وكذلك الصلاة لا تكون صلاةً إلا بهذه اللغة.

علماء الإسلام رحمهم الله كانوا ينظرون إلى هذه اللغة على أنها من الدين ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: "إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله" وأن حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام ولهذا حرص الصحابة رضوان الله عليهم إذا دخلوا كل قُطر فاتحين أنهم كانوا ينشرون هذه اللغة وانظروا في العراق وفي فارس حينما دخلها الصحابة رضي الله عنهم نشروا لغتهم وذهبت لغات الأعاجم.

اللغة أيها الإخوة وسيلة إلى معرفة القرآن الكريم وإلى فهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هنا قال العلماء إن فهم هذه اللغة واجب لأنها السبيل إلى معرفة نصوص الوحي، ولهذا تعلمون أن ما كان وسيلة إلى واجب فإنه يكون واجباً مثله أي أنه يأخذ حكمه، والمشهور عند أهل العلم أن تعلم اللغة فرض كفاية يجب أن يقوم به أحد وإذا تركته الأمة أثِمت، تواترت النصوص عن أهل العلم في سلف الأمة وخلفها تواترت النصوص بضرورة تعلم العلوم العربية لما بينها وبين علوم الشريعة من الصلة، وقد روى ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: "عليكم بالتفقه في الدين والتفهم للعربية وحسن العبارة لأن حسن العبارة من كمال اللغة ومن جمال الكلام "، وعن ابن شيبة وغيره عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه "أما بعد ، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية واعربوا القرآن فإنه عربي"، عمر رضي الله عنه ينظر إلى هذا اللسان على أنه لسان الوحيين أنه لغة الوحيين وينظر نظرة أخرى من جانب آخر إلى دخول الأعاجم في هذه الدين وانتشارهم في ديار العرب فكان يخشى على هذه اللغة أن تذهب معالمها وأن نتطمس أصولها فكان يكتب إلى عماره وكان يأمر الناس بأن يحرصوا على الفصيح، الشافعي رحمه الله في الرسالة ذكر وجوب الإحتفاء بلسان العرب وذكر كثيراً من خصائص لغة العرب، وكان الشافعي رحمه الله معدوداً في فصحاء الناس حتى إن في الكلام العربي ما لم يُسمع إلا من الشافعي وقد جعله العلماء رحمهم الله حجة فما جاء عن الشافعي من لسانه فإنه يحتج به، ويذكر في المعاجم على أنه من الكلام الفصيح.

ذكر الشافعي رحمه الله في الرسالة أنه يُفترض على كل مسلم أن يتعلم من العربية ما يبلغه جهدُه ، قال: " حتى يشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما أُفترض عليه من التكبير وما أُمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك" أهـ رحمه الله تعالى. والشافعي يُلحظ أنه يُأصِّل العلم هو علم أصول الفقه وسيأتينا إن شاء الله أن علم أصول الفقه يستمد أصوله من ثلاث ركائز أحدها علم اللغة. وقد ذكر عبد الظاهر الفرجاني رحمه الله أن الذي يُأصِّل علماً يعاني معناة كبيرة فيحتاج إلى أن يستجمع قواه وأن يستحضر ما آتاه الله من العلم ولهذا كان من أمتع ما يُقرأ الكتب التي يُأصَّل فيها العلوم. علماء الأمة سلفاً وخلفاً يرون أن العربية مرتبطة بجميع العلوم الشرعية لأنها المفتاح الأول للأصلين العظيمين الكتاب والسنة. ولا يمكن أن يصل الدارس إلى أسرار الوحيين وإلى استنباط الأحكام منهما ولا يمكن أن يتمكن من فهم دقائقهما حتى يأخذ بحظ وافر من علوم اللغة ، فلا يكفيه القليل كما يقال.

ونلحظ أنه من المعاصرين من يقول علوم اللغة علوم آلة وتشم من كلامه التقليل لعلوم العربية والتقليل من شأنها ، وأن أخذ العربية من النافلة. نحن نقول إن العربية وعلومها نعم هي آلة مت الآلات ولكنها الركيزة والأساس للانطلاق في كل علم، وتأملوا علوم الأمة ومجتهديها لا يمكن أن يوجد عالم في هذه الأمة إلا وهو متضلع من علوم العربية على إختلاف أنواعها. ولهذا اشترطوا في المجتهد أن يكون متبحراً في علوم العربية، الزمخشري في مطلع كتابه المفصل له كلام جيد ومقدمات الزمخشري فيها بلاغة وحسن وفيها أيضاً فرائض يقول : ما من علم من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيِّن لا يُدفع مكشوف لا يتقنع" أهـ. قال شارح المفصل ابن يعيش قال: "وذلك لأن معاني هذه العلوم لا تعرف على الحقيقة إلا بمعرفة ألفاظها والوصْلة إلى معرفة ألفاظها معرفة علم العربية" أهـ رحمه الله. وفي "أبجد العلوم" لصديق حسن خان رحمه الله يقول: "ومعرفة العربية ضرورة على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة" أهـ رحمه الله. وعَقَدَ بن فارس في كتابه "الصاحبي" باباً في حاجة أهل العلم والفُتيا إلى معرفة اللسان العربي ذكر فيه أن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق بالقرآن والسنة والفتيا بسبب يقول حتى لا غنى لأحد منهم عنه –أي عن علم العربية– .

علماء السنة من يقرأ في كتب السنة يجد أنهم ينصون على أن من أسباب الجهل ومن أسباب حدوث البدع ووقوع الناس في الضلال الجهل بالعربية وهذا منصوص في كلامهم. ذكروا أن الجهل بالعربية وأساليبها مما يوقع في الضلال كيف يكون ذلك قالوا لأن النصوص الشرعية تفهم على غير وجهها الصحيح وتنشا حينئذ فهوم جديدة حادثة من أقوام جهلة لا يعرفون أساليب العربية ولا يعرفون ماهية الفصاحة فحينئذ ينشأ الضلال وتتولد البدع ، وقد رَوى أبو عبيد في "فضائل القرآن" والبخاري في "التاريخ الكبير" عن الحسن البصري رحمه الله حين سئل عن ضلال بعض الفرق قال: "أهلكتهم العُجمة" يعني أنهم تصوروا على النصوص وأخذوا عنها وفق علمهم القاصر وتركوا الأخذ بالسبب وهو تعلم العربية ووضعوا فيما وضعوا فيه ومما يذكره مؤرخوا النحويين عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله أنه كان يقول : أكثر من تزندق بالعراق في جهلهم بالعربية ولاحظوا أن العراق كان فيها فرق وهذا السبب مهم معرفته في تاريخ هاتيك الفرق. قال بعض أهل العلم وينسب ذلك للشافعي : "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو" هذه المقولة تنسب للشافعي ولكني وجدت الذهبي رحمه الله في السير يستنكر حدودها منه ومعناها صحيح. السيوطي رحمه الله في "صون المنطق والكلام" أورد هذه المقولة وعزاها للشافعي واتبعها بقوله :" وجدت السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الإبتداع الجهل بلسان العرب" أهـ ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام في ذلك بديع فالرجوع إليه في الكتاب المشار إليه آنفاً. فإنه ذكر بعض ضلال الضلّال وراجعه في كثير منهم إلى جهلهم بالعربية وأساليبها ، فهذه الأقوال وغيرها كثير عن أهل العلم تؤكد أن الجهل باللغة وعدم معرفة قواعدها وطرق استعمالها كل ذلك مظنة الوقوع في الإبتداع واليكم هذا الخبر الذي رواه البيهقي في جامعه في سنده عن الأصمعي رحمه الله قال: "جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء –عمرو بن عبيد من أئمة الإعتزال وأبو عمرو بن العلاء من أئمة أهل السنة– جاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق المعتزلة يقولون بإمضاء الوعيد كما هو معلوم قال له يا أبا عمرو آلله يخلف وعده ؟ قال أبو عمرو: لن يخلف الله وعده قال عمرو فقد قال ، قال: أين؟ فذكر آية وعيد لم يحفظها أبو عمرو يحتج بها على امضاء الوعيد فقال له أبو عمرو بن العلاء : من العُجمة أتيت ألم تسمع قول الشاعر :

وإني وإن أوعدته أوعدته لمنجز إيعادي وأخلف موعدي

فاستدل ذاك بآية من القرآن ولكنه لم يفلح حيث كان جهله بالعربية سبباً في خطئه ذاك.

كبرت الفتوحات الإسلامية واتسعت دولة الإسلام ولا جرم حينئذ أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم وضعفت الملكات فلم يعد بايدي أهل العلم إلا أن يُهرعوا إلى تدوين لغة العرب ولاحظوا الجهد الضخم في تدوين لغة أمة كاملة حيث ينزل العلماء إلى البوادي ويرحلون إلى الفيافي ويلاحقون الأعراب يدونون لغاتهم من أقوالهم من أفواههم ومن أهل العلم مَنْ بقي في البادية بضع عشرة سنة يدون كلام الأعراب كما جاء ذلك عن الإمام الثقة أبي زيد الأنصاري رحمه الله وكما كان يفعل الأصمعي وغيرهما ، وأقام أبو منصور الأزهري عند القرامطة في الأحسان قرابة سبعة وعشرين سنة أسيراً واستغل أسره في تدوين كلامهم دونه. وأنظر أنت إذا جلست عند جماعة تحسب كلماتهم ماذا سيكون أمرك؟ بهذا العمل الجليل حُفظت اللغة ولاشك أيها الإخوة أن حفظ اللغة إن هو إلا حفظ الله لكتابه والله عز وجل يقول: "{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}"

صار لعلماء اللغة منهج في تدوين اللغة وضبطها وفهرستها وتدوينها ودرسها ، حتى إن منهج أهل اللغة في ضبط لغتهم كمنهج أهل الحديث فعندهم الصحيح والحسن والضعيف والشاذ والغريب والمسلسل وعندهم السماع والقياس ، كما عند أهل أصول الفقه كما نرى ذلك في في "الإقتراح" للسيوطي وقبله في "لمع الأدلة" للأنباري ، وإنك لتعجب عندما ترى جهدهم العظيم حينما يقولون هذه الكلمة رديئة وتلك جيدة وهذه عالية وهذه شاذة ، يقولون مثلاً (أَشْغَلَه) لغة رديئة والصحيح (شَغَلَه) ، ويحكمون على كلمة بأن العرب لم يدخلوا عليه (ال) كما يقولون في (كل وبعض) قالوا إن العرب لم يدخلوا عليهما (ال) .. تعجب كيف أنهم يحكمون على كلمتين لفظتين بأن العرب الذين يبلغون الآلاف المؤلفة في البوادي أنهم لم يقولوا (الكل) أو (البعض) هذا يدلك على ماذا .. يدلك على جلد وعلى صبر وعلى سعة علم وقوة حافظة وصبر ، وهذا كما أسلفت كله من حفظ الله لهذه اللغة إذ بها حفظ الدين.

مصنفات اللغة جعل العلماء للغة دواوين لحفظ لغة العرب وتدوينها ومعرف اشتقاقاتها وحقائقها ومجازاتها وكنايتها ، استنبطوا من اللغة العربية علم النحو واستنبطوا علم الصرف واستنبطوا علوماً أخرى ، استنبطوا من هذه اللغة فقهاً وصاروا يسمونه فقه اللغة. وتجدون مثلاً كتاب (المزهر) في مجلدين (المزهر في علوم اللغة) وهذا يقولون أنه فقه اللغة. كانت علوم اللغة في العصر الأول عصر التدوين كانت العلوم اللغوية من نحو وصرف ولغة وبلاغة كانت وَحْدَةً متكاملةً وحلقاتٍ متصلة تُؤلف في كتاب واحد يجمعها كتاب واحد ، وهذه الكتب تتسلسل فيها الموضوعات ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ودونكم مثلاً أول كتاب صنف في العربية وهو كتب (سيبويه) رحمه الله المتوفى سنة ثمانين أو خمس وثمانين ومائة على اختلاف في تعيين سنة وفاته. كتب (سيبويه) ذكر فيه أصول علم العربية وذكر الشاطبي رحمه الله في (الموافقات) في الجزء الخامس في صفحة أربعة وخمسين أن كتب سيبويه يتكلم في النحو واللغة والصرف وعلوم البلاغة من معان وبيان ويكشف عن وجوه تصرفات العرب في الألفاظ والمعاني. هذا كلام الشاطبي حتى أنك تجد في كتاب سيبويه أحاديث في التجويد ومخارج الحروف وعلوم الأصوات ، وهذا يدُلك على عظمة هذا الكتاب ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: "أنه لا يوجد في العالم من يستطيع أن يؤلف كتاباً مثل كتاب سيبويه" وكلمته هذه موجودة في (مجموع الفتاوى).

هكذا كانت اللغة في مبدأ أمرها مجتمعة متحدة ثم فُرقت بعد ذلك علوم اللغة في مصنفات مستقلة كغيرها من العلوم فصار كل علم من هاتيك العلوم علماً قائماً برأسه ، كما يكون هذا طبيعياً في كل هلم حتى في العلوم الإسلامية. وإن مما يدعو أيها الإخوة إلى العجب ما يتفوه به بعض طلبة العلم حينما يقولون إن عامة علوم العربية معتزلة جهمية أشاعرة مبتدعة ، هذا الكلام في الحقيقة يزري وينادي عليه بالجهل وقصر الإطلاع ، وهذا المتكلم نفسه لو فتشت في علمه لوجدته كحسب الطائر –تعرفون حسب الطائر– ولو تكلم هذا المتكلم لوجدته يلحن ولا يميز بين التمييز والحال ولا يعرف حرف الجر من أداة الشرط ، وهذا الكلام إنما قلته لأنه يتناقله بعض طلبة العلم الصغار فيأخذونه عن كبير. هذا المتكلم لو قلت له أعرب البسملة ما أحسن إعرابها مع أن إعراب البسملة من بداهيات العلوم ، وذكر ابن عاشور رحمه الله في كتاب (أليس الصبح بقريب) أن العلماء الأوائل كانوا أول ما يبتدئون تعليم الناس –أي الصغار– إعراب البسملة فيدربونهم فيقولون لهم أعرب البسملة. فالمتكلم بهذا الكلام الذي ذكرته لكم آنفاً لا يعرب إعراب البسملة وكلامه حينئذ ينادي عليه بالجهل. إن عاقبة هذا الكلام الذي يقال أيها الإخوة سيئة تدرون لماذا؟ لأنها طعن في علماء الأمة واتهام لهم ، هذا أولاً .. وثانياً أنه يصرف الناشئة عن تعلم العربية وعن حب لغة العرب ، وهذا في الحقيقة يذكرونا بالإستعمار الفرنسي لبلاد المغرب العربي فإن الاستعمار –لا أعاده الله– حين جاء في بلاد المغرب العربي عمد إلى المواد ، مواد اللغة العربية ، وجعلها إلى أيدي شيوخ مرضى زمنى يكحون ويسعلون فكان هؤلاء يدرسون للطلاب فورثوا للطلاب بغض هذه اللغة ، وفي المقابل يأتون بالشباب ذوي الوسامة وربما بفتيات يدرسونهم اللغة الفرنسية فنشأ جيل هذا ما نشأ عليه فكيف يحبوا لغة العرب ولغة القرآن ؟! وهي لغة قومه وأهله. فالذين يقولون إن علماء اللغة معتزلة وجهمية وكذا وكذا هؤلاء في الحقيقة يسيئون إلى أنفسهم ويسيئون إلى الناشئة ، فليحذر مَنْ يتفوه بذلك. نحن نقول نعم يوجد طائفة من علماء اللغة من أهل الإعتزال والتجهم كما يوجد في أهل العلوم الأخرى يوجد من هو مفسر معتزلي ومن هو فقيه أشعري وهذا موجود ، وكذلك يوجد في شراح الحديث وغير ذلك ولم يقدح ذلك في هاتيك العلوم ولم يزهد الناس في علومهم ولا في مصنفاتهم. وأنا أسوق لكم الآن أسماء طائفة من اللغويين الكبار ممن يعدون من علماء السلف وممن ناصروا العقيدة السلفية من علماء اللغة حتى تعلموا أن هذه اللغة التي تقرؤنها وتدرسونها وتطالعون مصنفاتها أنها دونت بأيدي علماء تفخر بهم هذه الأمة. فمن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة أربع وخمسين ومائة وحماد بن سلمة المتوفى سنة سبع وستين ومائة والخليل بن أحمد المتوفى سنة خمس وسبعين ومائة ويونس بن حبيب المتوفى سنة سبع وثمانين ومائة والنظر بن شميل المتوفى سنة ثلاثة ومائتين والأصمعي المتوفى سنة ثلاثة عشر ومائتين وابو عبيد القاسم بن سَلَّام المتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين وابن الأعرابي المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وابن قتيبة أبو محمد الذي يلقب خطيب أهل السنة كما يقول شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين وابراهيم الحربي المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين وثعلب صاحب الإمام أحمد وصديقه المتوفى سنة احدى وتسعين ومائتين وأبو منصور الأزهري المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة صاحب معجم تهذيب اللغة .. وغيرهم كثير كثير هؤلاء العلماء في الحقيقة هم من سلف الأمة الأخيار وهم أصحاب منهج سلفي مطرد في تدوين علوم اللغة وفي ضبط أصولها وتحرير قواعدها. وأنا استعرضت كتاب سيبويه فلم أجد فيه مسألة تخالف ما عليه سلف الأمة في معتقدها وفوق كل ذي علم عليم لكني أقول لكم إن هذا الكتاب العظيم الذي يُعد مرجع أهل النحو قاطبة حتى قال المازني: "من أراد أن يؤلف بعد سيبويه فليستحي" ، هذا الكتاب كتاب عظيم لا يوجد فيه خلل لا في منهجه العلمي ولا في عقيدة صاحبه لأنه أُلِّف في عصر متقدم فحسبكم أنه الأصل الأصيل في كتب النحو.

قلت لكم إن هؤلاء العلماء الأفذاذ لهم منهج سلفي مطرد في ضبط اللغة وتحرير قواعدها واستنباط أصولها. ذكر هذا المنهج صاحب كتاب (مناهج اللغويين في تقرير العقيدة) فليرجع إليه من شاء. كتب الإعتقاد عند أهل السنة التي دونت عقيدة أهل السنة ، كتب أهل السنة التي هي رد على المخالفين حافلة بالنقل عن هؤلاء الإئمة الأعلام يحتجون بأقوالهم وينازلون الخصوم في كلماتهم وتقريراتهم اللغوية كما ترون ذلك في شرح كتاب (شرح أصول السنة) للإمام الاكائي رحمه الله وكما ترونه في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المعَطِّلَة والجهمية) لإبن القيم رحمه الله وتجدون أيضاً إيراد كلام هؤلاء الأئمة في كتب المنافحين عن عقيدة السلف كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكعثمان بن سعيد الدارمي قبله وفي آخرين.

فالحاصل أن علماء اللغة كغيرهم يوجد فيهم من حاد عن السبيل لكن علماءهم الأوائل الكبار كانوا على منهج السلف في اعتقادهم فليحذر من يطلق لسانه فيهم.

قلت لكم إن علوم الشريعة قاطبة محتاجة إلى العربية ، فاللغة علوم اللسان هي القاعدة المتينة والأساس التي تقوم عليه العلوم الشرعية بلا استثناء من عقيدة وتفسير وحديث وفقه وأصول فقه ، بل قد نص العلماء على ذلك ولا ترى كتاباً في هذه العلوم إلا وترى فيه التنويه بالعربية وعلومها ، وترى فيها أيضاً النقل عن هؤلاء العلماء –أعني علماء اللغة– فهم ينهلون من معينهم ويرجعون إلى أقوالهم. ولا يذكر مصطلح إلا ويأصل أولاً حيث يذكر أصله في اللغة ثم ينقل عن علمائها. ،انا أسرد لكم الآن بعضاً من علوم الشريعة وأذكر نصوص العلماء فيها حتى تروا كلامهم:

علم الإعتقاد يسمى علم السنة ويسمونه العقيدة. علم الإعتقاد مر بنا عن الحسن البصري رحمه الله وعن أبي عمرو بن العلاء أن الضلال والإبتداع كان أصله أو من أصوله الجهل بالعربية وعلومها ، فهم يرون الجهل بعلوم العربية سبباً لحدوث الإبتداع وتنكب طريق السلف. وفي كتاب (الحيدة) الذي فيه ذكر المناظرة بين الكِناني وبين الرجل المنحرف بحضرة المأمون بيَّن عبد العزيز الكناني رحمه الله أن ضلال الرجل الذي ناظره يعود إلى جهله بالعربية. ثم ذكر عبد العزيز هناك أن المنحرفين من أهل الفرق يجهلون سَنَنَ العرب في كلامها فلا عجب بعد ذلك أن يضلوا في معتقداتهم وأن يتنكبوا طريق السلف وأن يؤولوا القرآن على غير وجهه.

وذكر ابن السِّيد البطليوسي في كتابه (التنبيه على أسباب الإختلاف بين المسلمين) ذكر أن من أسباب ضلال الفرق جهلهم بالعربية وعلومها. هذا يدلك على أهمية علوم العربية لمن يتعاطى علم العقيدة وتأصيل العقيدة.

سؤال .. ذكر ابن هشام في (المغْني) رحمه الله قال:"لايدخل في الإسلام من قال أشهد أن لا إلهَ إلا الله ، بل لابد أن يقول أشهد أن لا إلهَ إلا الله" فمن يعرف السبب يا إخوان ؟؟ للتنكير !! لا ليس بالتنكير. لأن قوله ( لا إلهٌ إلا الله) هذا فيه نفي الوَحْدة وليس فيه نفي الجنس ، يعني :انه إذا قال ( لا إلهٌ إلا الله ) نفى الوحدة ولم ينفِ أن هنالك إلهين ولا آلهة. فإذا قلت (لا رجلٌ في الدار) فنفيت رجلاً واحداً ولكنك لم تنفِ اثنين ولا ثلاثة ولم تنفِ نساءاً .. عرفتم. إذاً لا يدخل في الإسلام إلا إذا قال ( لا إلهَ إلا الله ) وذلك لأن (لا) تسمى ( النافية للجنس) وتسمى (لا للتبرئة) فبهذا يُعلم خطورة الأمر وأن طالب العلم عليه أن يدقق في هذا العلم.

طالب علم العقيدة يهمه أن يتعلم اللغة بفنونها المختلفة ، وذلك ليرد على المبتدعة اللذين جعلوا المجاز وسيلة للفرار من اثبات الحقائق التي صرح بها القرآن. المبتدعة جعلوا المجاز وسيلة لنفي الحقائق التي صرح بها القرآن. ولذلك يقولون عند نصوص الصفات مثلاً إنها مجاز ومَنْ كان على علم بالعربية وأساليبها فإنه يعرف كيف يرد على القوم ، ولا يحتاج الأمر إنكار المجاز من العربية لأن انكار المجاز متعذِّر ولكنه يحتاج إلى أن يبطل الأصول التي استدلوا بها ، كما فعل ذلك وقرره أحسن تقرير الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله في كتابه (الرد على بشر المريسي) ، فإم المبتدع الذي ناقشه ورد عليه احتج بالمجاز فرد عليه عثمان بن سعيد وقال "نحن نعلم مجازات العرب ونعلم أنها لا تنطبق على ما ادعيت من هذه النصوص العظيمة. فمثلاً إذا قال قائل: إن قوله تعالى قوله تعالى "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" مجاز .. نحن نقول إن هذا ليس بمجاز ولا يمكن أن يُحمل على المجاز من جهة اللغة نفسها ، فإما يمنع حمله على المجاز التثنية في قوله "بيدي" وإضافة الفعل إلى الفاعل ثانياً ، ثالثاً تعدية الفعل بالباء. فهذه ثلاثة أمور تؤخذ من اللغة إضافة إلى ما يقال من إجماع السلف على أن نصوص الصفات حقائق لا مجازات. فبهذا يُعلم أن تعلم اللغة مهم لطالب علم العقيدة.

علم التفسير .. حاجته إلى علوم العربية بينة ومَنْ نظر إلى كتب علوم القرآن وكتب أصول التفسير ك (البرهان) للزركشي وك (الإتقان) للسيوطي وك (الإكسير) للطوفي ، مَنْ رأى في هذه الكتب وجد أن جمهرة مباحثها من مباحث اللغة على إختلاف علومها. قال الزركشي رحمه الله في كتابه (البرهان): "اعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيئ من كلام الله ولا يكفيه في حقه تعلم اليسير منها" أهـ. وقال ابن قتيبة رحمه الله:"وإنما يعرف فضل القرآن مَنْ كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات" أهـ رحمه الله. فهذا يدل على أهمية هذا العلم. بعض المفسرين قال عند قوله تعالى:"يوم ندعو كل أناس بإمامهم" قال: إن الإمام جمع أم وهذا من الجهل بلسان العرب ومن الجهل بعلم الصرف لأن الأم لا تجمع على إمام ، ولهذا قال الزمخشري: "وهذا من بدع التفاسير". أراد القائل بذلك جمع إمام علل كلامه الباطل بتعليل مبني على سوء علم ، قال :يُدْعَون إلى إمامهم أي ينسبون إلى أمهاتهم وذلك ستراً على أولاد الزنى وحفظاً لحق عيسى عليه السلام" فهذا تعليل مضحك وكلام باطل وهو مبني على الجهل بعلم الصرف فتبين بذلك أن هذا القول سببه الجهل بالعربية. ومما يقال هنا إن الناس يوم القيامة يدعون بأبائهم كما جاء في الحديث الصحيح ، حديث ابن عمر " كل غادر يعقد بغدرته لواء فيقال هذه غدرة فلان ابن فلان " ولهذا بوب عليه البخاري رحمه الله بقوله : "باب ما يدعى الناس بآبائهم".

علم الحديث .. ذكر في (مفتاح السعادة) أن علم الحديث يقوم على معرفة علوم العربية كلها. فطالب الحديث يتوجب عليه معرفة العربية وذلك لأمرين ، الأول أنه يؤدي اللفظ النبوي كما هو على وجهه ولا يلحن. ولهذا قال شعبة وغيره :"أخشى لو لحن الراوي أن يُعدَّ في عداد الكذابين" أي لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجري اللحن على لسانه ولم يُعهد عليه خطأ لا في اللفظ ولا في المعنى. فإذا قال الراوي مثلاً: "اتقوا اللاعنان" أو قال صلى الله عليه وسلم : "اتقوا اللاعنان" نقول اتق الله لم يقل النبي ذلك ، وإذا قال مثلاً :"إذا التقى المسلمين بسيفيهما" قلنا خاف ربك ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، وإذا قال مثلاً: "إن لله ملائكةً سياحون" قلنا يا هذا أسكت !! عرفتم ؟؟ لأن الكلمات التي استمعتم هذه لحنات وأخطاء. وعلى هذا يتوجب على طالب علم الحديث أن يكون ذا بصرٍ بالعربية. ولاثاني من أسباب تعلم العربية في هذا العلم أن الماهر في الصناعة اللغوية هو الذي يتمكن من نقد متون الأحاديث عند الإرتياب فيها. هناك متون يُرتاب في نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ كان ذا بصرٍ بالعربية وعلم بطرائق اللسان يستطيع أن يميز اللفظ الردئ والكلم المضطرب والعبارات الركيكة. ولهذا قال الحافظ العراقي رحمه الله في ألفيته: "وحقٌ النحوُ على من طلبه". وقد عقد الخطيب في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي والسامع) باب عنوانه "الترغيب في تعلم النحو والعربية لأداء الحديث بالعبارة السوية". وقال النووي رحمه الله في (تدريب الراوي) :"وعلى طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يَسْلَم به من اللحن والتصحيف" ، ولذلك تجدوا في تراجم بعض المحدثين أنه كان ضعيفاً في العربية وياله من مغمز. وكان من أهل الحديث من الأئمة من يُعنى بعلم العربية ويختبر من يروي عنه كما جاء ذلك في ترجمة عبد الله بن إدريس الإمام الحافظ الذي أخرجوا له الجماعة قال المزي في (تهذيب الكمال):"ولا يحدث رجلاً إلا إذا اختبره في العربية فإذا لحن أمسك عن تحديثه وصرفه".

علم أصول الفقه .. قرر الأصوليون أن علم العربية أحد ثلاثة مصادر يستمد منها هذا العلم ذكر ذ لم الآمدي في (الإحكام) وغيره. وأجمع الأصوليون على أن من شروط الإجتهاد العلم بالعربية وحلّقها حتى قال أبو البركات الأنباري قال: "أجمع السلف والخلف من الأئمة على أن علم العربية شرط في رتبة الإجتهاد وأن المجتهد إذا جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الإجتهاد حتى يعلم العربية " أهـ رحمه الله. وأقول لكم إن الأصوليين قد عنوا أيما عناية بعلوم العربية والنحو لأنهم يمارسونها تطبيقاً في أشرف الكلام وأعلاه وأجله. ولهذا في كتب الأصول من دقائق مسائل العربية ومن فرائض مباحثها ما لا يكاد يوجد في كتب اللغة والنحو كما صرح بذلك السبكي في مقدمة (شرح المنهاج) وكما ذكر ذلك الزركشي في (البحر المحيط). من هذه المباحث مثلاً أحاديثهم في صيغ الشرط وفي حروف المعاني وأحاديثهم في الترادف وفي الإشتراك وفي مبدأ اللغات وفي أبواب الكناية وخروج الصيغ إلى معانيها المجازية فيها فرائد ودقائق ولهذا عني الباحثون من أهل اللغة باستنباط أحاديث الأصوليين وانتشرت المباحث التي تتحدث عن العربية عند الأصوليين.

علم القواعد الفقهية علم جليل الشأن القاعدة الفقهية هي حكم كلي ينطبق على جزئياته أو على أكثرها، والحكم يقوم أيها الإخوة على معرفة المعنى والعلة ومن هنا قامت العلاقة بين علم اللغة وعلم القواعد، وهنك مسائل وفروع فقهية تتخرج على أصول نحوية وقد عني بذلك جماعة من أهل العلم –أعني بجمع هذه المسائل– من اشهرهم بل قد يكون أشهرهم جمال الدين الإسنوي المتوفى سنة سبعة وسبعين وسبعمئة فإن له كتابين في ذلك مطبوعين أحدهما (الكوكب الدري) فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية والثاني (التمهيد) في تخريج الفروع على الأصول.

علم الفقه: الفقه معرفة الأحكام الشرعية العملية بأدلتها التفصيلية، هذا العلم يقوم على ماذا يا إخوان؟ يقوم على الاستنباط، والاستنباط أكبر أدواته علوم اللغة فباللغة تفهم النصوص ويعرف مدلولات الألفاظ وعلاقات الجمل، ولهذا قال ابن حزم رحمه الله:"فرض على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب ليعلم عن الله عز وجل وعن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون عالماً بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي به نزل القرآن وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها بإختلاف الحركات، فمن جهل اللغة وجهل النحو ومن لم يعرف ذلك اللسان لم يحل له الفتيا فيه" هو لا يحسن فهم كلام العرب فكيف ينتزع الحكم؟ ولهذا قال ابن حزم رحمه الله أيضاً قال:"ومن لم يعرف العربية فحرام عليه أن يفتي في دين الله بكلمة وحرام على المسلمين أن يسألوه".

لقد كان الفقهاء رحمهم الله معظمين للنحو والعربية، وجاء في تفسير القرطبي في أوائله قال أبو جعفر الطبري:" سمعت الجرمي –وهو صالح بن اسحاق الفقيه اللغوي من أهل القرن الثاني آخره وأوائل القرن الثالث لأنه توفي سنة خمس وعشرين ومائتين– يقول أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس بكتابه سيبويه"، قال المبرد محمد بن يزيد:" وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث –يعني من أهل الحديث– فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث إذ كان كتاب سيبويه يُتعلم منه النظر في التفسير ويُتعلم منه النظر في السنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم فبها يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً" أه منقولاً من كتاب القرطبي، وذكرت لكم آنفاً كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعظيم كتاب سيبويه أنه لا يستطيعه أحد من الناس رغم أن سيبويه رحمه الله توفي في الثلاثين من عمره، فالحاصل أن معرفة الفقيه لعلوم العربية ولفنون اللغة مهم جداً.

لو قيل لإنسان سؤال ألم تطلق إمرأتك؟ متى تطلق يا جماعة، إن قال نعم أو قال بلى؟ الجواب إذا قال بلى طلق زوجته فهو إثبات للطلاق لكن لو قال نعم لم يطلق وذلك لأن نعم إثبات للنفي، وهذا يا إخوان إذا كان المتكلم مجيب إذا كان من أهل العلم فهو معلوم أما إذا كان عامياً فيجب أن يُراعى، والحاصل أن معرفة هذا العلم –أعني علم العربية– للفقيه من الأهمية بمكان، لو قال إنسان أعتقت عشرة من العبيد إلا سبعة الكلام صحيح؟ ماذا تقولون؟ غير صحيح لماذا لأن الاستثناء أكثر من النصف لايصح عند الجمهور، والحاصل أن دقائق المسائل كثيرة في هذا العلم.

المنهجية في طلب العربية، كيف نطلب هذا العلم؟ العربية عند القدماء تشمل علوماً مختلفة من لغة ونحو وبلاغة وصرف، وكانوا يدرسونها كما سلف وَحْدةً متكاملة، وتقدم أن كتاب سيبويه جامع لعلوم شتى من علوم اللغة فما شار إلى ذلك الشاطبي، ومع اتساع الفهوم وتقادم الأيام وتشعب التأليف وكثرة الكلام وانتشار المسائل، بدأت علوم العربية تستقل عن بعضها، ويقوم كل علم بنفسه مستقلاً، فاستقل علم الصرف على يد معاذ بن مسلم الهرواء، وكتب عبد الله بن المعتز كتاب بديع قيل أنه أول كتاب في البلاغة، ثم ظهرت معاجم اللغة وكتب معاني القرآن اللغوية، وطالب العلم محتاج إلى أن يكون عنده إلمام بعلوم العربية بالقدر الذي يسعفه في سيره للعلم وتحصيله للشرع، فنقول –ولله تعالى التوفيق– إن علوم العربية عند أهل هذا الفن تشمل اثني عشر علماً على اختلاف بينهم في تحديدها، وممن جمع هذه العلوم الشيخ حسن العطار في "شرح الأزهرية" يقول:

نحو وصرف عَروض بعده لغة ثم اشتقاق وقَرْبُ الشعر إن شاءوا

كذا المعاني بيان الخط قافية تاريخ هذا لعلم العُرْضِ إحصاء

ولبعض أهل اللغة مناقشات لتحديد هذه العلوم، الذي يهم طالب العلم للعلوم العربية أربعة: النحو والصرف واللغة –علم مفردات اللغة– والبلاغة، هذه أربعة تهم طالب العلم، فأما النحو فيبدأ طالب العلم بالمتن المبارك الآجرومية فإذا حفظه ويسر له من يشرحه واستنار بشرحي الشيخين ابن جاسم وابن عثيمين رحم الله الجميع، فإن الطالب سيحصل على خير كثير وسيسلم لسانه من اللحن، الآجرومية يا إخوان مَنْ اعتنى بها أمِنَ من اللحن بإذن الله تعالى، وهذا المتن المبارك ألفه صاحبه عند الكعبة كما قيل ولذلك لم يلق أرواحاً إلا انتفع به، وفي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمن جاسم جامع فتاوى محمد بن ابراهيم رأى في المنام أنه يأكل حلوى لذيذة وتمراً ثم استيقظ وتذكر انه قرأ على الشيخ ابن باز رحمه الله الآجرومية ولم يكملها، وكان رأى في المنام أنه انقطع عن أكل الحلوى فقال: "أولتها لقراءتي لهذا المتن" والحاصل أن الآجرومية متن مباركوأنا أحكي لكم ذلك عن تجربة، فإذا أتقن الطالب الآجرومية فينتقل بعد ذلك إلى ألفية ابن مالك فيحفظها ويبحث عمن يشرحها له ويستعين بشرح لهذه الألفية، والألفية بأحد شروحها هي سقف النحو، مَنْ أتقن الألفية فإنه قد حاز علم النحو وظفر به، بل مَنْ إن أتقن الألفية أيها الأخوة فإنه سيحصل على علم الصرف لأن الألفية في آخرها مشتملة على هذا العلم، علم الصرف هو الباحث في بنية الكلمة، وحاجة طالب العلم إلى الصرف أقل من حاجته إلى علم النحو ولهذا يقل تدريس الصرف بين الناس.

رأيت طلاب العلم في هذا الوقت معنيين بحفظ لامية الأفعال لابن مالك رحمه الله في مئة وأربعة عشر بيتاً وهي في علم الصرف وهي خاصة بتصريف الأفعال وحفظها جيد نافع إن شاء الله تعالى، وأما الشناقطة فإنهم يجعلون اللامية شقيقة لألفية ابن مالك فيحفظونها معاً، ثم مما يحتاجه طالب العلم أيضاً من علوم اللغة العربية علم اللغة وهو العلم الذي يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة من حيث دلالتها على معانيها، وإن شئت قلت في تعريف هذا العلم: هو معرفة مفردات اللغة ومعانيها، كتب هذا العلم هو المعاجم اللغوية، وقد كان الناس في القديم يحثون أولادهم على حفظ كتاب "الفصيح" لثعلب وهو كتاب جمع فيه طائفة من الألفاظ اللغوية وقد جمع فيه أبنية من كلام العرب، وهذا المختصر جليل في قدره صغير في حجمه، حتى قالوا أن العلماء حسدوا مؤلفه عليه، ومنهم مَنْ نسبه إلى غير ثعلب كأنهم تكابروه عليه، هذا الكتاب له شروح متعددة وطبع منها طائفة خمسة شروح تقريباً، ومن جملة شروحه الترويح للهروي يقول في مقدمته:"أما بعد، فإنه لما كان جمهور الناس الذين يأدبون أولادهم ومَنْ يعنون بأمرهم يحفظونهم كتاب الفصيح قبل غيره من كتب اللغة لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة" إلى آخر كلامه فيدلك على أن الناس يأخذون أولادهم بحفظ هذا الكتاب وهو صغير، من جملة ما عُمِلَ عليه نظمه فقد نظمه ابن المرَحَّل في كتابه الذي سماه "موطأة الفصيح" في قرابة ألف وأربعمئة بيت وهو نظم سهل سلسل فسبحان الواحد الذي يختص برحمته مَنْ يشاء وهو ذو الفضل العظيم، وعندنا طالب في هذا المسجد يحفظه أو شرع في حفظه، وقد أتم ثلثه تقريباً وهو عازم إن شاء الله على إتمامه، وذكرته لكم لنبين أن العلماء كانوا يحرصون على هذا العلم –علم اللغة– طالب العلم يحرص على أن يجعل إلى جواره في مكتبته أو في مجلسه القاموس المحيط ليراجعه ويعرض عليه الكلمات التي يقرأها في كتب أهل العلم أم التي يسمعها في كلام الناس فإن طالب العلم إذا أتقن الرجوع إلى القاموس صار عنده ملكة وصار عنده مخزون لغوي وصار يميز الفصيح من غيره، وكتاب القاموس حافل نافع، فإذا ضم طالب العلم إلى مكتبته لسان العرب "لإبن منظور" ومعجم "مقاييس اللغة" لإبن فارس فيكون كأنما بعث العرب بين يديه يسمع كلامهم ويأخذ عنهم ولا يحتاج بعد ذلك إلى شيء من كتب اللغة أبداً، وقد كان العلماء الأوائل يعنون بهذا العلم –أعني علم اللغة– وكانت لهم به عناية تامة، وأسوق لكم كلاماً لإبن حزم رحمه الله يوصي به طلاب العلم أمثالكم كما في رسالته "مراتب العلوم" يقول:"والذي يجزئ من علوم اللغة كتابان أحدهما (الغريب المصنف) لأبي عبيد –هذا مطبوع في مجلدين لكن على طريقة القدمى عمل به مصنفع أربعين سنة– و(مختصر العين) للزبيدي –وهو مطبوع في مجلدين أو ثلاثة على اختلاف الطبعتين– ليقف على المستَعْمَل –أي من اللغة– بهما ويكون ما عدا المستعمل عنهما عدة لحاجة إن عنَّت يوماً ما في لفظ مستغرق فيما يقرأ من الكتب فإن أوغل في علوم اللغة حتى يُحكم خلق الإنسان –كتاب خلق الإنسان لثابت في مجلد مطبوع– و"الفروق" –أيضاً لثابت في مجلد مطبوع– و"المذكر والمؤنث" –لإبن الأنباري مطبوع في مجلدين– و"المدود والمقصور" –مطبوع في مجلد لإبن علي القالي– و"المهموز" –له أيضاً– و"النباتة" –أي كتاب النبات لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري– وما أشبه ذلك فحسن" اه رحمه الله، كتاب النبات هذا مفقود اطلع عليه صاحب معجم الأدباء وذكروا أنه في ثلاثين مجلداً جمع فيه مصنفه كل ما في أرض العرب من النباتات، وقد ذكر صاحب الوافد أنه مؤلفه كتبة على طريقة العرب الأوائل –أعني في جزالة اللغة وفي بعورة ألفاظه– لأنه دوَّن ما يوجد في أراضيهم، هذا الكتاب لطالب بن حزم رحمه الله، هذه الكتب كما قلت لكم قديمة قبل أن يوجد ما ذكرته لكم من الكتب التي غطت كالقاموس ولسان العرب.

معجم" مقاييس اللغة" مهم لطالب العلم أن ينظر فيه حتى يعرف أصول الكلمات، فإنه يذكر الجَذَرَ وما يتفرع عنه وأحياناً يذكر الأصل فبقول مثلاً الباء والثاء والراء بثر أصل واحد يدل على القطع فتعرف أن المعاني أو الاشتقاقات الأخرى ترجع إلى أصل واحد وهذا من مزايا لغة العرب أنها مشتقة فتعرف فاذا عرفت الأصل عرفت ما يتفرع عنه وهذا خلاف ما يوجد في اللغات الأعجمية فإنها لغات ليست لغات اشتقاق، فاللغة الإنجليزية مثلاً فيها مثلاً مادة (كَتَبَ) write ومكتبة عندهم بالإنجليزية library هل يوجد بينهما علاقة؟ ما في !! والحاصل أن معجم "المقاييس" يرجع بك إلى أصل الكلمات فالائق بطالب العلم أن يكثر من الرجوع إليه، وقد ذكر بعض المعاصرين أن استدراكات الزبيدي في كتاب "العروس" على القاموس مستقات من معجم "مقاييس اللغة" يرجع إلى الأصل ثم يستدرك على مؤلفه.

علم البلاغة يكفي طالب العلم أن يقرأ دروس البلاغة لـ (حفني ناصف) وزملائه فإذا قرأه على أستاذ في هذا العلم فإنه يأخذ به إلى درجة عليا فيه، ولا يوجد شرح لدروس البلاغة أوصي به لأن الشروح الموجودة الآن مقتضبة أو ليست على طريقة أدبية بلاغية.

هذا ما يتعلق بهذه العلوم الأربعة: النحو والتصريف –أو الصرف– واللغة والبلاغة، وبعد فالذي أوصي به طالب العلم أن يُعنى بلغته ويرتقي بها وعليه أن يحرص على أن يستعمل الفصيح ويتجنب اللحن في كلامه إذا درَّس أو حاضر أو قرأ كتاباً بين يدي عالم أو سأل عالماً سؤالاً عليه أن يعود لسانه الفصاحة فإن هذا كان دأب السلف كانوا يتحاشون اللحن وكان منهم من إذا لحن استغفر كما جاء ذلك عن أيوب السختياني رحمه الله وهذا يدلك على تعظيمهم لهذه اللغة، وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله أن السلف كانوا يأخذون أولادهم في التزام العربية وكانوا يحثونهم على تجنب الخطأ في الكلام، ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم" أن اعتياد اللغة العربية في اللسان أنه يؤثر في العقل والدين، أما تأثيره في العقل فإنه يساعد في تنظيم الأفكار وترتيب الكلم، وأما تأثيره في الدين فبيِّن لا يحتاج إلى شرح لأن هذه اللغة هي لغة الكتاب العزيز ولغة محمد صلى الله عليه وسلم.

على طالب العلم أن يحرص على السؤال فيما أشكل عليه من مسائل اللغة، وعليه أن يُعْرِبَ الكلمات التي تستعصي عليه فإن استعصت عليه رجع إلى أهل الفن، وعلى طالب العلم أيضاً إذا مرت به مباحث اللغة في كتب التفسير أو الفقه ألا يتجنبها ولا يتنكبها بل عليه أن يقرأ فيها فإن فهم فحسن وإن فهم أكثرها أو منها كذلك خير أما أن يفوتها بالكلية فلا، قال سيبويه رحمه الله:"كان الخليل بن أحمد يوصينا إذا لم نفهم المسألة أن نحفظها ويقول لابد أن تفهمها في يوم من الأيام" لأن الإنسان مع تقادم الأيام يتسع فهمه ويكون عنده إدراك وزيادة معرفة، أوصي طلاب العلم إذا تعلموا علوم العربية أن يحتسبوا ذلك كما يحتسبون في تعلمهم في الفقه والتفسير وعليهم أن يتذكروا أن المشتغل بتعلم اللغة أنه يتعلم لغة الكتاب العزيز ولغة الحديث الشريف، وقد قال ابن حزم رحمه الله تعالى:"كلما ازداد طالب العلم وأوغل في تعلم العربية فهو زيادة في فضله وأجره" هكذا قال.

أسأل الله أن ينفعنا وإياكم بهذا العلم، وأن يعيننا على فهمه والعمل به فإنه سبحانه نعم المستعان وعليه التكلان ولا حول لنا سواه ولا نرجو إلا إياه، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

هنا طائفة من الأسئلة بعضها أتيت عليه في أثناء الحديث.

يقول السائل: المصباح المنير ما قيمته لطالب العلم؟

الجواب: المصباح المنير للفيومي معجم وضعه لغريب الشرح الكبير للرافعي على الوجيز مختصر في فقه الشافعية والوجيز للغزالي، وهذا المصباح المنير نافع وجيد، وضع لكتاب ولكنه نافع وفيه فوائد من جهة ضبطه للأفعال والأوزان وكذلك المصادر وهذا مما تميز به عن كتب اللغة فيما أعلم، فمثلاً يقول: دَلَفَ على وزن نَزَلَ يعني في المضارع يدْلِف، ومثلاً يقول: سطح البيت يقول الجمع على سطوح مثل فَلْس وفلوس وما أشبه ذلك، هذا ما تميز به المصباح المنير وإذا أردت أن تقتنيه فحسن إن شاء الله تعالى.

يقول هذا السائل: إن بعض طلاب العلم يتكلم عن علم النحو ويجعله غاية ويكون كالفقه في الإمعان فيه والمعلوم أن هذا العلم إنما هو وسيلة لفهم الكلام ولإقامة اللسان وقد قيل أنه كالملح في الطعام يعني يأخذ ما يحتاج منه، وقلت لكم إن هذه العلوم نعم وسيلة وأن الطالب لا ينكب عليها بحيث يترك ما عاداها وإنما يتعلم النحو كما يتعلم غيره وإذا أتقن فناً في النحو متناً كالآجرومية ثم بعده الألفية أو اكتفى بالآجرومية وقال يكفيني فله ذلك ونحن لا نريد أن يجعله ليله وصَبوحه وغَبوقه، وأما قوله إن النحو في الكلام كالملح نفسره بإنه يأخذ ما يحتاج منه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أنه لا بد منه.

وهذا السائل يقول أنا في الصف الثالث الثانوي وأريد التوجه إلى إحدى الكليات فما تنصحون لنا؟

الجواب: انظر إلى نفسك وما عندك من التوجه فإن كان عندك ميول في علوم الشريعة فلا أقدم على كلية الشريعة غيرها.

وهذا يقول: ما أفضل الطبعات لكتاب سيبويه؟

الجواب: أساتذتنا يقولون إن أفضل الطبعات لكتاب سيبويه هي الطبعة الأوروبية التي هي في مجلدين هي أصح مما عداها، وهناك طبعة وهي التي يرجع إليها كثيرون وهي لتحقيق (عبد السلام هارون) وهذه لها فهارس واجتهد فيها (عبد السلام هارون) رحمه الله، ولكن كان أساتذتنا يوصون بالرجوع إلى الطبعة الأوروبية لأنها أصح في النصوص ويمكن أن تضيف إليه طبعة (عبد السلام هارون).

وهذا السائل يقول: من أتقن الآجرومية فهل توصيه بدراسة ملحق الإعراب أو القطر؟

الجواب: أنا أقول من أتقن الآجرومية وهضمها فعليه بالألفية إذا أراد التوسع وإلا لا يحتاج إلى القطر ولا غيرها، فإما أن يذهب إلى ألفية ابن مالك أو يكتفي بالآجرومية، فإن قال لا ما يستطيع الألفية نقول أوقفه إذاً يكفيك.

سائل يقول ما أهمية الأدب للطالب وهل له أهمية عن العلم الشرعي؟

الجواب: علوم .. الأدب وكتب الأدب كان الناس من أهل العلم يستحيون بها فيقرؤن من كتب الأدب ويبحرون كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فإن يقول في نهاية مجلسه: "أحمصوا" يعني اعطونا من الأدب ومن الشعر حيتان العرب، وللأسف أن غالب كتب الأدب فيها ما لا يرضي فيها اسفاف، ومن أحسن كتب الأدب فيما أعلم كتاب "بهجة المجالس" لإبن عبد البر، وهناك كتب أدبية ولكن لا يجعلها طالب العلم ديدباً له في القراءة فتأخذ عليه أوقاته، وأنا أدعو من كان عنده قدرة أدبية وعلمية أن يختصر كتب الأدب ويخلصها من السخط الذي فيها ومن السفاف ومن المجون ومن ثلب سلف الأمة ككتاب (البيان والتبيين) للجاحظ مثلاً، فمن يسر منكم من يقوم بتلخيصه واختصاره ليقدم النافع منه ويترك ما عداه فهذا حسن.

يقول: ما رأيك فيمن يقول لا حاجة لقراءة أو لحفظ الأشعار أو المعاجم ؟

الجواب: نعم المعاجم كان الناس يكثر الرجوع إليها فإذا كنت تريد أن تحفظ شواهد على كلمات لتأصيلها أو على أساليب تريد تقريرها فهذا جيد إن شاء الله تعالى.

يقول: ما اسم كتاب البلاغة الذي ذكرته آنفاً؟

الجواب: (دروس البلاغة) لحفني ناصف وزملائه.

سؤال يقول:هل يحتاج طالب العلم إلى علم العَروض؟

الجواب: يعني إن كان عنده وقت يتسع وقد مهر في النحو والصرف فلا بأس أن يأخذ من علم العروض ما يعرف به الصحيح من السقيم من أشعار العرب وهو علم سهل صعب.

هذا ما تيسر قوله .. وأسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى وأن يغفر لنا ما أخطأنا فيه وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه أجمعين.